الموضوع الثاني: بناء القصيدة:

رأى ابن طباطبا القصيدة بناء متنوع المراحل متفاوت الأقسام، وأن هذه المراحل على تنوعها، والأقسام على تفاوتها يكمل بعضها بعضًا، ويوغل ابن طباطبا فى أسلوبه التعليمي، فيتأنى فى عرضه، ويفصل الشرح، وينبه على المآخذ التى يتوقع الوقوع فيها، ويعتمد على التمثيل للرأى النقدى بما يقاربه فى الحياة، ويقرن التوجيه النقدى بالعلة الموجبة له، كل ذلك فى تسلسل منطقى يرتب فيه اللاحق على السابق، وتؤخذ النتائج بأسبابها.

يرى ابن طباطبا أن بناء القصيدة يمر بثلاث مراحل:

الأولى: مرحلة الفكرة والتهيؤ العَروضي» فالشاعر يدير المعانى فى فكره، ويلائم بين معانيه وألفاظه، ويقع على الوزن الذى يناسب الألفاظ، وتجرى عليه المعانى سلسلة مناقدة نحو قافية تلتئم معها وتوافقها.

الثانية: مرحلة الصياغة، وهذه أفاض فيها ابن طباطبا، وجاءت على صورة نصائح وتوجيهات للشاعر، إذ نصحه بصياغة معانيه فى أبيات لا ينشغل بتنسيقها وترتيبها إلا بعد اكتمال المعانى وكثرة الأبيات، فيوفق بينها بأبيات تكون نظامًا لها، وسلكًا جامعًا لما تشتت منها.

ثم نصحه بمراعاة التناسب بين الألفاظ فيما بينها، والاتساق بين الأساليب فى بلاغتها، فلا يخلط الكلام البدوى بالحضرى المولّد، ولا يقرن الألفاظ السهلة بالوحشية النافرة، وأن يضع الكلام مواضعه وفق المقام ومقتضى الحال، فيستفاد من عقله أكثر من الاستفادة من تحسين نسجه.

أما وَصْل الكلام والتحام أجزائه، فقد حظيا من ابن طباطبا بالشرح والتفصيل وضرب الأمثال، وهو ما شغله فى الكتاب كله وميزه عن غيره، ومما يلفت النظر تأكيده على ضرورة التزام الصدق والوَفْق فى التشبيهات

والحكايات، وتلك إحدى القضايا النقدية المتعلقة بالصدق والكذب فى الشعر، وقد عبر عنها شاعران، الأول حسان بن ثابت فى قوله:

وإن أشْعَر بيت أنت قائلُه بيتٌ يقال إذا أنشدته صَدَقَا

والثانى البحترى فى قوله:

كلفْتُمونا حدود منطقكم والشعر يغنى عن صدقه كذبه

وفى ذلك تفصيل وبيان عرضهما عبد القاهر الجرجانى فى «أسرار البلاغة» بفصل «القسم التخييلي» (١)، ثم أخذ ابن طباطبا فى بسط طريقة العرب فى الأوصاف والتشبيهات والحكم على سبيل التمثيل، وعرض النماذج العليا فى هذا الصدد ليجد فيها المحدثون قدوة، ويتمثلونها منهجًا فى أشعارهم قال: «واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها، وأدركه عيانها، ومرت به تجاربها... فشبهت الشيء بمثله تشبيهًا صادقًا على ما ذهبت إليه فى معانيها التى أرادتها، فإذا تأملت أشعارها، وفتشت جميع تشبيهاتها وجدتها على ضروب مختلفة تتدرج أنواعها فبعضها أحسن من بعض، وبعضها ألطف من بعض... فتسلك فى ذلك مناهجهم، وتحتذى على مثالهم إن شاء الله تعالى » (العيار ١٩) ويفرع ابن طباطبا القول فى التشبيه تفريعاً يعلن عن خطر هذا الفن البلاغى فى الصياغة الشعرية عند القدماء والمحدثين، ويوقفنا على اهتمامه بجودة التصوير الذى هو قَوام الشعر، فيذكر أن أحسن التشبيه ما إذا عُكس لم ينتقض بل يكون كل مشبه بصاحبه مثل صاحبه، ثم أخذ فى سرد ضروب التشبيهات بإسهاب وتفصيل مقترنين بالاختيارات.

ويفطن ابن طباطبا إلى ارتباط صور التشبيه بالبيئة الطبيعية، وأن بعض تشبيهات القدماء لا تروق المحدثين أو يستغربونها، لهذا وجب إرجاع التشبيه إلى منابعه التى صدر عنها، سواء فى البيئة أو التقاليد والأعراف الاجتماعية

(١) أسرار البلاغة ١٣١، وسيأتى تفصيل ذلك فى مسائل متفرقة.

حتى يُعرف فضل هؤلاء فيما وصفوه، وسدادهم فيما أجروا التشبيه عليه، وفى ذلك يقول: «فإذا اتفق لك فى أشعار العرب التى يحتج بها تشبيه لا تتلقاه بقبول ، أو حكاية تستغربها فابحث عنه، ونقر عن معناه، فإنك لا تَعْدَم أن تجد تحته خبيئة إذا أثرتها عرفت فضل القوم بها، وعلمت أنهم أرق طبعًا من أن يلفظوا بكلام لا معنى تحته .(العيار١٦).

وبعد هذا التوجيه للشعراء المحدثين وهم بصدد شحذ قرائحهم بأشعار القدماء وما فيها من صور وتشبيهات، يقف ابن طباطبا طويلاً عند سنن العرب المستعملة بينها التى لا تفهم معانيها فى أشعارهم إلا سماعًا، من ذلك إمساك العرب عن بكاء قتلاها حتى تطلب بثأرها، فإذا أدركته بكت حينئذ قتلاها، كقول الربيع بن زياد العبْسي:

من كان مسرورًا بمقتل مالك ... فَلْيأت نسوتنا بوجه نهار
يجد النساء حواسرا يندبنه ... يلطمن أوجههن بالأسحار
قد كُنَّ يَكْتُنّ الوجوه تستّرا ... فالآن حين برزْن للنظّار

(العيار٥١)

ويستمر فى سرد التقاليد العربية الواردة فى الشعر، تأكيدًا على ضرورة الإحاطة بها لفهم مضامين الشعر، وإلا غُمّ الأمر كله على القارئ أو السامع وهو ما عناه ابن طباطبا بقوله« وربما خفى عليك مذهبهم فى سنن يستعملونها بينهم فى حالات يصفونها فى أشعارهم، فلا يمكنك استنباط ما تحت حكاياتهم ولا يفهم مثلها إلا سماعًا، فإذا وقفت على ما أرادوه لطف موقع ما تسمع من ذلك عند فهمك» (العيار ١٦) وهو فى هذا التوجيه النقدى يجمع إلى البلاغة بعض عناصر التاريخ المكونة للصورة الشعرية ، ويقيم من التقاليد والأعراف أساسًا يكشف عن قيمة الصياغة البلاغية فى التشبيه، ويبين عما خفى من معانى الشعر الموصولة بالبيئة الطبيعية، والاجتماعية.

ومن الصياغة عند ابن طباطبا حسن الابتداء، والتعريض الخفي، وقد عرضهما من الجانب النفسى فقال: «ومن أحسن المعانى والحكايات فى الشعر وأشدها استفزازًا لمن يستمعها الابتداء بذكر ما يعلم السامع له إلى أى معنى يُساق القول فيه قبل استتمامه، وقبل توسط العبارة عنه. والتعريض الخفى الذى يكون بخفائه أبلغ فى معناه من التصريح الظاهر الذى لا ستُردونه، فموقع هذين عند الفهم كموقع البُشْرى عند صاحبها ، لثقة الفهم بحلاوة ما يرد عليه من معناهما» (العيار ٢٤) فاستفزاز السامع بحسن الابتداء مقصود وحفزه بالتعريض الخفى مرغوب فيه، وهما عند الفهم كالبُشرى المنبئة عما يليها، ويمثل ابن طباطبا لذلك بقوله: «وأما الابتداء بما يُحسّ السامع بما ينقاد إليه القول فيه قبل استتمامه فكقول النابغة:

إذا ما غَزَوْا بالجيش حَلَّق فوقهم عصائبُ طيرٍ تهتدى بعصائب

فقدم فى هذا البيت معنى ما يحلق الطير من أجله، ثم أوضحه بقوله:

يُصَاحِبْنَهم حتى يُغِرن مَغَارهم من الضّاريات بالدماء الدَّوارب
تراهن خلف القوم زُورا كأنها جلوس الشيوخ فى مُسُوك الأرانب
جوانحَ قد أيقنَّ أن قبيلهُ إذا التقى الجمعان أولُ غالب
لَهُن عليه عادةٌ قد عرفْنها إذا عَرَّضوا الخطّىَّ فوق الكواثب[1]

وفى التعريض الخفى يقول: «وأما التعريض الذى ينوب عن التصريح، والاختصار الذى ينوب عن الإطالة فكقول عمرو بن معد يكرب)يلوم فيها جَرْما حلفاء قومه):

(١) انظر عيار الشعر ص٤٣ـ٤٤، ورواية الديوان تخالف بعض المروى هنا، ففى الديوان نجد البيت الأول: «إذا ما غزوا فى الجيش» والبيت الثالث:
تراهن خلف القوم خُزرا عيونها جلوس الشيوخ فى ثياب المرانب.
والبيت الخامس:
«إذا عُرِّض الخطّى فوق الكواثب»، والضاريات: المتعودة ، والدّوارب : الحاذقات.

فلو أن قومى أنطَقَتْنى رماحُهم نطقتُ، ولكنّ الرماح أجَرَّتِ

أي: لو أن قومى اعتنوا فى القتال، وصدقوا المصَاع (أى القتال) ، وطعنوا أعداءهم برماحهم فأنطَقَتْنى بمدحهم، وذكر حُسْن بلائهم:

..... نطقتُ، ولكنّ الرماح أجَرَّتِ

أي: شَقَّت لسانى كما يُجرّ لسان الفصيل: يريد : أسكتَتْني» (العيار٤٥).

وهذا من الكناية التى ظهرت فى تمثيليه بقول الشاعر:

لعمرى لنعم الحيُّ حيُّ بنى كعْبِ إذا نزل الخَلْخَال منزلةَ القُلْبِ

وذلك أنه إذا رِيعت صاحبة الخلخال أبدت ساقها وشمَّرت للهرب ، والقُلْب هو السِّوار، وتبديه المرأة وتخفى الخلخَال، إذا لبستهما وهى آمنة، وقد قيل فى معنى البيت أن المرأة إذا رِيعت لبست الخَلخَال فى يدها دَهَشا (العيار٤٦)، فالشطر الثانى كناية عن الفزع والهلع.

وبعد، فالصياغة والبناء الداخلى للقصيدة شغلا ابن طباطبا وهو يوجه الشعراء، وكان للتشبيه محل أعظم من غيره فى ذلك، ثم فَرَّق نصائحه لتشمل الألفاظ والمعانى والتحام أجزاء القصيدة ، وحضَّ على اتباع طريقة العرب فى الوصف والتشبيه، ونبه على ارتباطهما بالبيئة والأعراف والتقاليد ، وقد رد حسن الابتداء، والتعريض إلى تأثيرهما النفسى عند السامع، وهو فى كل ما قاله كان يَقرن الرأى بشاهده أو المثال الذى يوضحه.

الثالثة: مرحلة التثقيف والتهذيب، وفيها يَرُمُّ الشاعر ما وَهَى منه، ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية، ويغير من مواقع قوافيه ، أو ينقل بعضها إلى معنى يستحدثه ، ويظل يجيل النظر فى معانيه وألفاظه وقوافيه بالتهذيب والحذف، والتعديل والصقل، والترتيب والتنسيق عامداً فى كل ذلك إلى ذوقه

وإحساسه وعقله وتفكيره حتى تتآلف الأبيات ، وتقع القوافي مواقعها من المعانى متمكنة بلا تكلف، وفى ذلك يقول ابن طباطبا: «فإذا كَمُلَت له المعاني، وكثرت الأبيات، وفَّق بينها بأبيات تكون نظامًا لها ، وسلكا جامعًا لما تشتت منها، ثم يتأمل ما قد أداه إليها طبعه، ... ويرم ما وَهَى منه، ويبْدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية، وإذا اتفقت له قافية قد شغلها فى معنى من المعاني، واتفق له معنى آخر مضاد للمعنى الأول، وكانت تلك القافية أوقع فى المعنى الثانى منها فى المعنى الأول نقلها إلى المعنى المختار الذى هو أحسن، وأبطل ذلك البيت أو نقض بعضه وطلب لمعناه قافية تشاكله...» (العيار٨).

فتلك مراحل ثلاث فى بناء القصيدة: فكرة، وصياغة ، وتثقيف ، وقد جعلها ابن طباطبا مراحل متتابعة أحيانًا ومتداخلة أخرى.

الموضوع الثالث: أقسام الشعر:

جرى ابن طباطبا على إجمال الرأى ثم تفصيله والتمثيل له، إلا أنه فى كثير مما فصله لم يلتزم التأليف بين العناصر المتشابهة متتابعة وفق تتابعها فيما أجمله، وقد ترتب على هذا توزع العنصر الواحد فى مواضع كثيرة متباعدة، الأمر الذى فرض علينا جمع ما تفرق لتنتظم العناصر فى موضوعات متجانسة مع مفردات كل منها.

١- أشعار محكمة، وصفها بقوله:

«فمن الأشعار المحكمة المتقنة المستوفاة المعاني، الحسنة الوصف ، السلسة الألفاظ التى قد خرجت خروج النثر سهولة وانتظامًا، فلا استكراه فى قوافيها، ولا تكلف فى معانيها، ولا عِيّ لأصحابها فيها ... فهذه الأشعار وما شاكلها من أشعار القدماء والمحدثين، أصحاب البدائع والمعانى اللطيفة الدقيقة - تجب روايتها والتكثُّر لحفظها» (العيار١١٠) ويمثل لهذا القسم بأشعار خَلَت من نقده أو أى ذكر لمواضع الحسن فيها، دلالة على امتلائه بمحاسنها التى جمعها فى وصفه الشعر المحكم، لذا جعلها نماذج مثلى تروى وتحفظ.